

ويمضي الشاعر في وصفه المشاهد الطبيعية في طريقه إلى الآستانة قادماً من أوربة في ثلاثين بيتاً ، وفي البيت الثلاثين ينتقل من وصف القطار الذي يقفه إلى مدح السلطان العثماني على النحو التالي من التخلّص :

يجري على مثل الصراطِ وتارةً ما بين هاويةٍ وجُرْفِ هارٍ
جاءَ المالكَ حَزْنُهَا وَسَهولها وطوى شعابَ الصَّربِ (والبُلغارِ)
حقى رَمَى برحالتنا ورجائنا في ساح مأمولٍ عزيز الجار (١٢)

ولقد نرى في تعدد أغراض القصيدة الأولى مبرراً شعورياً حين نراه يؤثر الوقوف على الأطلال في الأندلس بكيها قبل أن يفرغ لحيثه عن الوطن ، لأن الشاعر كان منفيًا عن وطنه في بلاد الأندلس ، فلا يسعه أن يخلو إلى وطنه يبثه شوقه إلا بعد أن يخلّص سبيل هذا القلب المدين للأندلس بمشاعر كريمة نبيلة .

كما قد نرى في القصيدة الأخيرة مبرراً معقولاً لوصف الرحلة والطبيعة ومشاهدها في الطريق إلى الآستانة كهذا المبرر المعقول الذي ذكره القدماء لوصف الرحلة الشاقة في مقدمة المدحة ، غير أن معقولية الصلة لا تعني شعوريتها ، فلا صلة شعورية بين وصف مفاتن الطبيعة وآياتها في الطريق عبر بلاد الصرب والبُلغار وغيرها . امتداح السلطان ، وطبعاً لا أنكر على الشاعر وصفه لهذه المفاتن الطبيعية في مقدمة مدحته محتجاً بكلام مسلم بن قتيبة الذي رأى أن الأقدمين قد وصفوا منابت الشيخ والحنوة والعرار ، ولهذا فليس للمعاصرين أن يصفوا منابت النرجس والآس والورد .

لا أذهب هذا المذهب الذي يحتم وصف رحلة شاقة قبل المدح ، الأمر الذي يجعل المدح تسولاً وابتزازاً للمال بحق ما بذل الشاعر في وعورة الطريق ومشقته ، ولكنني أذهب إلى أن إعجاب شوقي بالطبيعة ووصفه لها ، غرض قائم برأسه ، اهتم به الشاعر وأفتن فيه ما استطاع ، وأن مدحه للسلطان غرض آخر قائم برأسه لم يحسن فيه الشاعر ولم يفتن ، ولا أرى بين الغرضين وشيخة شعورية تربط بينهما .